

ملامح تطور وازدهار الأدب في العصر العباسي

مهما يكن من أمر التغيير الذي أصاب الحياة في العصر العباسي ، فقد ظلت اللغة العربية أداة التعبير ووسيلة الفن القوي ، على الرغم مما أتاحه ذلك العصر للناس من ثقافات جديدة متنوعة ، وتجارب حيوية مختلفة ، إلا أن أداة التعبير في ذلك كله كان باللغة العربية بكل ما فيها من إمكانيات وطاقات تعبيرية .

ولما كان الأديب لسان قومه وعصره ، كان طبيعياً ، أن يكون هناك صراع بين التقاليد الفنية الموروثة وبين ثقافة وذوق المجتمع الجديد ، لكنه مع مرور الوقت بدأ التيار الجديد يفرض نفه ويؤكد جودته ، ونفذ الشعراء العباسيون من خلاله إلى استحداث أسلوب جديد عرف باسم أسلوب الموالدين اعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزخرفة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الزخرفة بالكلمات المبتذلة .

ويعبارة أخرى أسلوب يجمع بين مادة اللغة بمقوماتها النحوية والصرفية الملائمة بينها وبين الحياة الحضرية المترفة في العصر العباسي ، من حيث القدرة على تخير البعيد عن الغرابة والوحشية ، وعن العامية المبتذلة ، وبدأت الأساليب ذات سمة خاصة تشق عن ذلك المزيج من القديم الفصيح والذوق الحضري الجديد .

وقد كان بشار أحد الأوائل الذين استخدموا هذا الأسلوب ، وأرسوا قواعده وسار على نهجه شعراء كثيرون أمثال البحتري وأبو تمام الذي رد ذلك الأسلوب

إلى قوة السبك وضخامة البناء ، وكذلك ابن الرومي ، والذي يقول فيه بن خلكان :
" والشاعر المشهور صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني
النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك الفن حتى
يستوفيه إلى آخر ، ولا يبقى فيه بقية " .

ويظهر صاحب كتاب العمدة منهج الشعراء في العصر العباسي بقوله "
ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هجنة
اللفظ وقبحه وخشونته كإبن الرومي ، وأبي الطيب ومن شاكلهما هؤلاء
المطبوعون .

كما لعبت الثقافة اليونانية والفارسية دوراً كبيراً في التركيبة الثقافية
لبعض الشعراء تمثلت في التشخيص الذي يشبه توليد الأساطير واخترع الأرباب
والربيات لكل قوة من قوى الطبيعة عند اليونان ، وكذلك المعاني النادرة والأخيلة
المبتكرة ، كأن يصور بعض الشعراء المعاني المجردة أرواحاً ينسب إليها ما ينسب
إلى الأحياء من الأعمال والأقوال ، ومن ذلك قول ابن الرومي ساخراً من العوسج
كأنه إنسان .

غذرتنا النخل في إبداء شوك

يذود به الأنامل عن جناه

فما للعوسج الملعون أبدي

لنا شوكة بلا ثمر نراه

تراه ظن فيه جنى كريماً

فأظهر عدة تحمي حماه

فلا يتسألن لدفع كف

كفاه لؤم مجناه كفاه

ولما كان من ملامح العصر الثقافية، دراسة الفلسفة والمنطق ومذاكرة علم الكلام، والعلوم المترجمة، فقد كان لزماً أن ينشأ الشعراء أو بعضهم على نصيب من تلك العلوم في شعرهم، بحيث لا يلم المتصفح ببعضه إلا جزم بإطلاع قائله على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها، حتى سرت في أسلوبه وتفكيره، والجدير بالذكر أن مثل هذه الأشياء تعد ملمحاً واضحاً في الشعر العباسي، لم يكن موجوداً من قبل، بل كانت نتيجة حتمية لانتشار الثقافات المختلفة بصورة أثرت تأثيراً جدياً في الشعر والشعراء بالإضافة إلى أعراض الشعر الأخرى والتي سيأتي بيانها.

كما أن الشعراء بجانب ما جددوه في الأسلوب إلا أنهم ظلوا ينظمون في الموضوعات القديمة مثل المدح والرثاء والهجاء والغزل والوصف والمجون والزهد وظلت تلك المجالات قائمة وإن كانوا قد توسعوا في بعضها مثل المدح والمجون والزهد واستجابة للأوضاع والمتغيرات التي طرأت على العصر العباسي.

أبو العتاهية وأثره في الزهر:

ترجمته :

هو : أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان وينتهي نسبه إلى عنزة بالولاء من قبل أبيه وإلى بني زهرة من قبل أمه التي كانت مولاة لهم. وأبو العتاهية كنيته ، ولقب بها بعد أن دعاه المهدي بها يوماً : وعتاهية يقال للرجل المتحذلق ، فقد رأى الأصفهاني أن المهدي قال له يوماً أنت متحذلق متعته فاستوتت له من ذلك كنية غلبت عليه دوناسمه وسارت في الناس ^(١) ويقال أنه لقب بذلك الاضطراب كان فيه وقيل لأنه كان يحب الخلاعة والمجون والتعته.

وقد ولد عام ١٣٠ هجرية في بلدة تعرف بعين - التمر وهي كما يقول ابن خلكان من أعمال سقي الفرات بالعراق ، وقد نشأ في الكوفة ، والكوفة وعين التمر كلتاها من سقي الفرات .

وقد أجمعت كتب الأدب أنه نشأ نشأةً وضيعة فاسدة ، فكانت أمة مولاه وأبوه، بائع جرار أو كان حجاماً ، إلا أن أبا العتاهية لم يعبأ بهذا الأصل وظهرت في شعره إشارات إلى فضل العلم والتقوى على النسب والأصل امتثالاً لقول الله ﷻ :

﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَكُمْ ... ﴾ ^(٢).

١- الأغاني ج ٤ ص ٢ .
٢- سورة الحجرات : من الآية ١٣ .

ومن ذلك قوله :

ألا إنما التقوى هي العزم والكرم

وحبك للدنيا هي الفقر والعدم

وليس على عبد تقى نقيصه

إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم^(١)

وقد نشأ الشاعر في الكوفة - كما أشرنا - وأخذ يختلط بالبيئات المختلفة، والتي كانت سمة من سمات العصر العباسي، فاختلف بالمجان من الشعراء وأختلف إلى حلقات العلماء والوعاظ في المساجد، مما كان سبباً في إتقانه اللغة العربية والتعرف إلى مذاهب أصحاب الكلام.

كما توثقت الصلة بينه وبين إبراهيم الموصلي المغني، وتعهدا على أن ينزلا بغداد ليرجا بضاعتهما - الشعر والغناء - ففتحت الأبواب أمام إبراهيم الموصلي بينما أوصدت دون أبي العتاهية، فقرر العودة إلى الكوفة، ولما فتحت الدنيا على الموصلي في خلافة المهدي دعاه إبراهيم وأرسل في طلبه ليقدمه إلى الخليفة، فذهب إليه أبو العتاهية، وأعجب الخليفة بشعره وقربه إليه وأغدق عليه بالعطايا والمنح.

وتمر الأيام ويرحل المهدي ويخلفه الهادي، فيلزمه أبو العتاهية ينشده ويمدحه في كل مناسبة فينال منه المنح والجوائز، ويستمر على هذا الحال مع ابنه الرشيد حينما ولي الخليفة وأصبح لا يفارقه في سفر ولا حضر، وكان يجري عليه خمسين ألف درهم في السنة بالإضافة إلى ما كان يحصله من جوائز وصلات من كبار رجال الدولة.

١- الأغاني ج ٤ ص ٥.

وقد امتنع في هذه الفترة عن قول الغزل والهجاء والمدح لغير الخليفة مما كان سبباً في إيدائه وسجنه ، ولعل ذلك بداية زهده ، إذ إنه ما لبث حتى أخذ في قول الزهد والإكثار من الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وقد اتهم في عقيدته " ، لكنه يرد على ذلك بقوله : " زعم الناس أنني زنديق والله ما ديني إلا التوحيد ، فقلنا له : فقل شيئاً نتحدث به عنك أي من الشعر - فقال :

ألا إننا كنا بأئد

وأى بنى آدم خالـد .

ويدوهم كان من ربهـم

وكل إلى ربه عائد

فوا عجباً كيف يعص الإله

أم كيف يجحد الجاحـد

وفي كل شيء له آية

تدل على أنه الواحد

ولعل الظروف السياسية والصراعات الحزبية كانت وراء مثل هذه الاتهام التي كانت تلقي على بعض الشعراء ، ممن كانوا يتناولون هذه المثالب بالنقد والتوجيه والثورة على المفاصد التي كانت منتشرة آنذاك لكن الناظر في شعر أبي العتاهية لا يجد هذه التهمة أي الزندقة أو أي أثر لنظر نقدي في الكون أو لنزعة فلسفية في الدين .

شعره ومكانته الأدبية :

يعد أبا العتاهية من الشعراء المطبوعين في العصر العباسي ، فقال صاحب الأغاني : أطبع الناس بشار وأبو العتاهية . وقال ابن الأعرابي وقد أثاره رجل رمي أبا العتاهية بالضعف . فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر .

ونظراً لكثرة الشعراء في العصر العباسي ، وشدة التنافس بينهم إلا أنه استطاع أن يشق طريقه بين الحاسدين والواشين ، وأن يجعل لنفسه مكانة عالية وعرف بشعره ، وفنه طريق القصور والقلوب .

وهذه المكانة تعطينا بأن أبا العتاهية كان شاعراً مطبوعاً وكان شعره لطيف المعاني سهل الألفاظ بليغ التركيب ، قليل التكلف ، وهذا ما أكده المبرد بقوله : أبو العتاهية حسن الشعر قريب المأخذ لشعره ، ديباحة ويخرج القول كمخرج النفس قوة وسهولة واقتداراً ^(١) .

وقد سئل كيف تقول الشعر قال : ما اردته قط إلا مثل لي . فأقول ما أريد وأترك ملا أريد .

ويؤكد الجاحظ هذه الحقيقة حين سمع من ينشد قول أبي العتاهية :

يا للشباب المرح المتصابي

روائح الجنة في الشباب

فيقول للمنشد كف : أنظر إلى قوله " روائح الجنة في الشباب " فإن له معنى كمعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة

١- انظر الكامل ج ١ ص ٢٣٩ .

إلا بعد التطويل وإدامة التفكير وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .

وهذه الأقوال وتلك الشهادات لا تمنع من وجود بعض العثرات والسقطات مع أقتداره، وتمكنه من قرض الشعر وسهولته عليه ، لكن هذه العثرات لا تخرجه من إمارة الشعر في العصر العباسي ولا تقلل من شأنه ولا من مكانته بين الشعراء المطبوعين الذين كانوا يتمتعون بغزوة النظم وقوته وتعبيره، عن الأحاسيس والمشاعر . وكلما كان الشاعر صادقاً في فنه مخلصاً له ، كان فنه هذا خالداً بخلود الفن الأصيل .

زهد :

يكاد يجمع المؤرخون والباحثون على أن أبا العتاهية قد ختم حياته بالزهد وظل نحو ثلاثين عاماً يتغنى بالموت والزهد في الدنيا والابتعاد عما فيها من زخرف وبهجة وفتنة ، وحاول الاقتراب من الآخرة ، فكثرت في شعره العظات والتذكرة بالموت في صفحات فنية رائعة تشيع في جنباتها الفلسفة الروحانية العميقة القائمة على المعاني الإيمانية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

ولعل الذي دفعه إلى هذا الاتجاه الشعري وتركه ما كان عليه الشعراء هو تأثير العصر الذي جمع بين المتناقضات ؛ حياة اللهو والشراب والرقص والغناء والغزل ، وحياة الزهد والتقوى والخشوع ، فهذه العوامل أسهمت في تكوين نزعة الزهد عنده ، فترك الغزل والمنادمة واختط لنفسه أسلوباً آخر واتجاهاً يخالف ما كان عليه الشعراء آنذاك .

كما يرجع هذا التحول الشعري عند أبي العتاهية إلى أنه كان يحس بالضعفة والحرمان والنقص ؛ فقد نشأ محروماً فقيراً من أسرة وضيعة يعير عائلها بعمله كحجام في الوقت الذي أحب فيه الشاعر الدنيا وأقبل عليها وكلف بها لكنه لم يجد من تصبو إليه نفسه ، فولد إحساسه بالحرمان في نفسه النعمة على الدنيا ، ولم يلبث أن بالغ في ذمها وتحقيرها ، وذم الحرص عليها والتكالب على مباحها وزينتها .

هذا بالإضافة إلى أن عصر الشاعر أسهم في هذا التحول إذ إنه كان من أحفل العصور الإسلامية بالزهد والزهاد ولم يرق إلى درجة الرقي والازدهار واعتباره اتجاه شعرياً إلا في العصر العباسي ، فقد استغرق بعض الشعراء في الذات العلية وحاولوا التجرد من كل ما سواه من عرض المادة والحس واللجوء إلى الحب الخالص لله والاقتراب من اليوم الآخر ، وكان أبو العتاهية أحد هؤلاء الشعراء من أمثال : ذوالنون المصري وعمر بن الفارض ، وأبو يزيد البسطامي والحسين بن منصور الحلاج ، إلى غير ذلك من الشعراء ممن اشتهروا بهذا الاتجاه .

وإذا سلمنا بأن الزهد قد ظهر في شكل ثورة نفسية من الشاعر على ماضية وحنقه على الدنيا فلم لا نقول أنه بالإضافة إلى ذلك ، يعتبر صدى لثورة أوسع انبعثت من الجانب المتدين في المجتمع العباسي ، والذي يعد بمثابة اتجاه مضاد لاتجاه الخلاعة والفجور ، والتباين الكبير بين الطبقات في الغني والفقر ، لذا نلمح في أشعاره توبيخاً وتسفيهاً للأغنياء ، وحنساً لهم على التخلي عن لذائد الدنيا الفانية .

في مثل قوله :

يا من بني القصر في الدنيا وشيده
أسست قصرك حيث السيل والغرق
لا تغلفن فإن الدار فانية
وشربها غصص أو صفوها رنق
والموت حوض كرية أنت وارده
فانظر لنفسك قبل الموت يا مذق
وأشعاره في هذا الاتجاه كما نرى تمتاز بالسهولة واليسر، وتدل على صدق
عاطفته ورهافة حسه .

وفاته :

وافته المنية وانتقل إلى الدار التي طالما تغني في أشعاره بها والانتقال إليها
سنة عشر أو إحدى عشرة ومائتين من الهجرة ، ودفن ببغداد ، عن عمر يناهز
التسعين عاما ، كما يبدو من هذه الأبيات التي أوصي أن تكتب على قبره ، والتي
يقول فيها :

أذن حيي تسمعي	اسمعي ، ثم عي ، وعي
أنا ، رهن بمضجعي	فاحذري مثل مصرعي
عشت تسعين حجة	أسلمتني لمضجعي
ليس زاد سوى التقى	فخذي منه ، أو دعي

نماذج من شعره :

قال في التضرع إلى الله والندم على ما اقترف من ذنوب :

إلهي لا تعذبني فأني

مقر بالذي قد كان مني

ومالي حيلة إلا رجائي

وعفوك إن عفوت وحسن ظني

فكم من زلة لي في البرايا

وأنت علىّ ذو فضل ومن

إذا فكرت في قدمي عليها

عضضت أناملي وقرعت سني

يظن الناس بي خيراً وإني

لشر الناس إن لم تعف عني

ويقول في الزهد في الدنيا وعدم التعلق بها إلا بقدر ما يعين المرء على الحياة ،

وأنه لن يأخذ من الدنيا ، إلا على قدر حاجته مهما بلغت أمانيه وأطعامه ولن

يبقى له إلا ما قدمه خالصا لوجه الله :

جمعت من الدنيا وحزت ومنيتا

ومالك إلا ما وهبت وامضيتا .

ومالك مما يأكل الناس غير ما

أكلت من المال الحلال فأفنيته .

ومالك عن شيء جعلته

أمامك إلا شيء لغيرك أبقيتا

ومالك مما يلبس الناس غير ما

كسوت وإلا ما لبست فأبليتا.

وهو بهذا القول يتمثل القول المأثور: ليس لك من مالك إلا ما أكلت

فأفنيته وما لبست فأبليت وتصدقت فأبقيته .

قصيدة أبي العتاهية في مخاطبة الدنيا وفسها

١. قطعت منك حبال الأمل
وحطت عن ظهر المطي رحالي
٢. وبئست أن أبقى لشيء نلت مما
فيك يا دنيا ، وأن يبقي لي
٣. فوجدت برد اليأس بين جوانحي
وأرحت من حلي ومن ترحالي
٤. ولئن بئست لربّ برقة خلب
برقت لذي طمع ، وبرقة آل
٥. ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلي
وبنات وعدك يعتجلن بيالي
٦. فالآن يا دنيا عرفتك فذهبي
يا دار كل تشئت وزوال
٧. والآن صار لي الزمان مؤدباً
فغدا عليّ ، وراح بالأمثال
٨. وألان أبصرت السبيل إلى الهدى
وتفرغت هممي عن الأشغال
٩. ولقد أقام لي المشيب نعاته
يفضي إلى بمفرق وقذال
١٠. ولقد رأيت الموت يبرق سيفه
بيد المنية حيث كنت حيالي

١١. ولقد رأيت عُرَ الحياة تخرمت
ولقد تصدي الوارثون لمالي
١٢. ولقد رأيت على الفناء أدلة
فيما تتكر من تصرف حالي
١٣. وإذا اعتبرت رأيت خطب حوادث
يجرّين بالأرزاق والأجال
١٤. وإذا تناسبت الرجال فما أري
نسبا يقاس بصالح الأعمال
١٥. وإذا بحثت عن التقي وجدته
رجلا يصدق قوله بفعال
١٦. وإذا اتقي الله أمرؤ وأطاعه
فبداه بين مكارم وفعال
١٧. وعلى التقي إذا ترسخ في التقي
تاجان ، تاج سكيّنة وجلال

وهي قصيدة طويلة تفيض بالانفعال الصادق والعزم القوي على الطريق الذي أدت إليه فلسفته في الحياة بعد أن خبرها وبلاها وتأملها واكتوى بنار شرورها ، وذاق فيها طعم الحرمان والشقاء ، فأطال التأمل ، وأمعن في النظر فدقق الإمعان ، ثم وصل إلى النتيجة القوية الواضحة التي وثق بها .

وتكاد تكون هذه القصيدة امونجا متكاملأ لشعره في الذهب ، إذ إنها جامعة لأهم خصائصه الفنية في هذا الاتجاه ، كما أنها تشتمل على الكثير من أسباب فلسفته وزهده ، وستعرض لهذا الجزء من هذه القصيدة بالشرح والتحليل لنقف على ملامح الزهد عند الشاعر .

الشرح والتحليل :

✍ حقيقة الدنيا والبعد عنها :

يقول أبو العتاهية مخاطباً الدنيا .

١. قطعت منك حبائل الآمال
وحطط عن ظهر المطي رحالي
٢. ويئست أن أبقى لشيء نلت مما
فيك يا دنيا ، وأن يبقي لي
٣. فوجدت برد اليأس بين جوانحي
وأرحت من حلي ومن ترحالي
٤. ولئن يئست لربّ برقة خلب
برقت لذي طمع ، وبرقة آل
٥. ما كان أشأم إذا رجاؤك قاتلي
وبنات وعدك يعتجنن ببالي

اللغة :

١. **حبائل** : جمع حباله وهي شرك الصائد .
المطي : جمع مطية من المطاء وهو : الظهر .
ويطلق لفظ مطية على الذكر والأنثى .
والرحال جمع رحل وهو : ما يعد للرحيل من المتاع .
٢. **اليأس** : القنوط وعدم الرجاء .

الدنيا : نقيض الآخرة وهي أنثى الأدنى وسميت الدنيا لدنوها ،

ولأنها دنت وتأخرت الآخرة وكذلك سميت السماء الدنيا لقربها إلينا .

٣. **البرد** : ضد الحر ، **والبرودة نقيض الحرارة** ، والمراد الهدوء والسكينة والفتون .

الجوانح : جمع جانحة وهي الأضلاع التي تحت الترائب والمراد ما

تحتويه وهو القلب .

الحل : الإقامة ، الترحال السفر .

٤. **رب هنا تعني** : التكثير .

وبرقه الضب : لمعة البرق التي لا تعقب مطراً .

الآل : السراب .

٥. **أشأم** : من الشؤم وهو التطير والشر .

بنات الوعد : كناية عن الآمال الزئفة الخادعة .

يعتجلن : يسرعن .

المعنى :

يبدأ الشاعر قصيدته بجملة من الحقائق تتمثل في الكشف عن حقيقة

الدنيا ومحاولة البعد عنها ، وعدم التعلق بها ، والجري وراء ما فيه من آمال زئفة

وغرر يضل صاحبها ، لذا فإنه لم يعد له طمع في زخارفها الزئفة وزينتها المغرية

الخادعة ، ولم الطمع والتعلق بها وبرقتها لا يخلف وسرابها دائم الخداع ، وبخاصة

وقد ظل طوال الماضي من عمره متعلقاً بها مخدوعاً بسرابها ، مفتوناً بزئفتها

وبهزجها مقتولاً برجائه منها ، مشغولاً بآماله فيها فما وجد غير السراب ، والهباء

المنتور .

والشاعر بذلك يقرر تلك الحقيقة وهي أن الدنيا متاع الغرر وحياة فانية من تعلق بها وانشغل بزينتها وزخرفها ، ساقته إلى الهوان والضياع والخسران وهذا يدل على أن الشاعر قد تمرس الحياة وعاش ضروباً من لذائدها وتعلق بكثير من زخارفها ، وزينتها ، فحديثه عنها وكشف حقيقتها ، يوحى بتجربة صادقة عاشها الشاعر واعتملت نفسه بكل جزئياتها . فخرجت تلك الحقيقة معبرة عن واقعه وما أضحت عليه حاله من جراء تعلقه بها .

هداية بعد ضلال:

٦. فالآن يا دنيا عرفتك فاذهبي

يا دار كل تشئتت وزوال

٧. والآن صار لي الزمان مؤدباً

فغدا على ، وراح بالأمثال

٨. وألان أبصرت السبيل إلى الهدى

وتفرغت هممي عن الأشغال

٩. ولقد أقام لي المشيب نعاته

يفضي إلى بمفرق وقذال

١٠. ولقد رأيت الموت يبرق سيفه

بيد المنية حيث كنت حيالي

١١. ولقد رأيت عُرَ الحياة تخرمت

ولقد تصدي الوارثون لمالي

اللغة :

٦. **تشتت** : تفرق وهو ضد التجمع .
 ٧. **مؤدبا** : معلما ومهذباً . **غدا على** : أقبل .
راج : ذهب . **الأمثال** : القصص والنوادر والعظات .
 ٨. **بصرت** : رأيت . **السبيل** : الطريق المستقيم .
الهدى : الرشاد والفلاح .

همم : جمع همة وهي الاهتمام وتعني العزيمة والإصرار .

الأشغال : جمع شغل وهو ما يلهي عن غيره من الأعمال .

كما في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴾ (١) .

٩. **النعاة** : جمع ناع وهو المصوت بما يكره أي الذي يأتي بخبر الموت .
يفضي : يخبر ويُسِر .

المفرق : بكسر الراء وفتحها : وسط الرأس .

القدال : بفتح القاف - جماع مؤخر الرأس والمراد أن رأسه اشتعل شيباً .

١٠. **يبرق** : " يلمع ، سيف الموت : علامته كالكبر والمشيبي .

حيالي : إزائي ونحوي .

١١. **الغرا بضم العين** : جمع عررة ، وهي مبيت الأزوار في الثياب والمراد

أحوال الدنيا وما كان يأمله فيها .

تخرمت : ثقبت وانشقت واحترمته .

المنية : أخذته ، واحترمهم الدهر أي اقتطعهم وأستأصلهم .

تصدي الوارثون : تعرضوا واستعدوا للميراث واقتسامه .

١- سورة يس : الآية ٥٥ .

المعنى :

بعد أن كشف الشاعر النقاب عن حقيقة الدنيا ، وأنها زُئفة وفانية ، تسلل الندم إلى نفسه وقلبه على ما ضاع من عمره؛ في ظل خداعها وزيفها وتأمله في سرابها . فأعلن قطع صلته بها بعد أن تعرف إلى طريق الهدى والفلاح وانصرفت غايته عما كان يشغلها من قبل وانقطع للتدبر والتفكير في الاستعداد للآخرة ، وكيف لا وقد اشتعل رأسه شيباً وهو رسول من رسل الموت ، جاء يحمل سيفه لينقض عليه كما رأى أحوال الدنيا وما كان يأمله فيها قد تقطع من حوله وتمزقت صلته بها وتراءى له الأبناء وهم يتربصون بساعة فراقه لهم ويتربصون نشوة لقائهم بميراثهم .

وكل هذه أدلة يسوقها الشاعر ليؤكد بعده عن الحياة وعن فعل ما يشينه أو يعيبه باقي عمره؛ وأنه بدأ مرحلة جديدة عرف فيها طريق الهدى والرجوع إلى الله ﷻ .

التقوى سبيل الفلاح :

١٢ . ولقد رأيت على الفناء أدلة

فيما تنكر من تصرف حالي

١٣ . وإذا اعتبرت رأيت خطب حوادث

يجرّين بالأرزاق والآجال

١٤ . وإذا تناسبت الرجال فما أرى

نسباً يقاس بصالح الأعمال

١٥ . وإذا بحثت عن التقي وجدته

رجلاً يصدق قوله بفعال

١٦. وإذا اتقى الله أمرؤ وأطاعه

فإداه بين مكارم وفعال

١٧. وعلى التقى إذا ترسخ في التقى

تاجان ، تاج سكيئة وجلال

اللغة :

١٢. **الفناء** : الموت والعدم وهي نهاية كل المخلوقات ومنه

قول الله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾^(١)

تنكير : تغيير وأصبح منكراً ، والتنكير التغيير عن حال تسرك إلى حال

تكرهها منه والمنكر : ضد المعروف .

الحال : الشأن . والمراد أحواله وتصرفاته وأموره .

١٣. **اعتبرت** : تذكرت وتفكرت في عبر الزمان وتصرفاته . ومنه .

قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾^(٢)

والمراد التذكرة والتفكر والأدكار .

الخطب : الشأن أو الأمر، صغر أو عظم، وقيل هو سبب الأمر .

يقال : ما خطبك ؟ أي ما أمرك ، وفي التنزيل العزيز .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾^(٣)

١- سورة الرحمن : الآية ٢٦ .

٢- سورة الزمر : الآية ٢١ .

٣- سورة الذاريات : الآية ٣١ .

أي ما شأنكم وحالكم والجمع خطوب. الأجال : جمع أجل هو العمر المحدود ، ومنه قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۗ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ۗ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (١)

١٤ . تناسب : ذكرت أنسابها مفاخرة .

وانتسب واستنسب : ذكر نسبه وجمع النسب أنساب .

صالح الأعمال : الأقوال والأفعال الطيبة وفي التنزيل العزيز :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٢)

١٥ . التقي : من بقي نفسه المحاذير والزبل :

ومنه قول الله تعالى :

﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ... ﴾ (٣)

أي أحذروا واحموا أنفسكم .

والتقي : المتقي الذي يجنب نفسه المهالك .

الفعال : الفعل وهو ما يقابل القول ومنه قوله سبحانه :

﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۗ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٤)

والمراد أن التقي هو الذي يتوافق قوله مع فعله .

١- سورة الأنعام : الآية ٢ .

٢- سورة الكهف : الآية ٣٠ .

٣- سورة التحريم : من الآية ٦ .

٤- سورة الصف : الآية ٢،٣ .

١٦. **مكارم** : جمع مكرمة بفتح الميم وضم الراء وهي الأفعال الكريمة

المعالي : جمع (معلاة ، وعلا، وعلاء) بمعنى الشرف الثابت والذكر العالي المرتفع .

١٧. **التاج** : ما يصاغ للملوك من الذهب والجوهر، والعرب تسمي العمائم التاج وفي الحديث : (العمائم تيجان العرب) جمع تاج أي العمائم للعرب بمنزلة التيجان للملوك .

ترسخ : رسخ الشيء يرسخ رسوخاً : ثبت في موضعه ، الراسخ في العلم الذي دخل فيه دخولاً ثابتاً . وكل ثابت راسخ ومنه :

﴿ ... وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ... ﴾ (١)

أي الثابتون على مدارسة العلم .

سكينة : الاستقرار والهدوء والرزنة . ومنه قوله جلا وعلا :

﴿ .. فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا.. ﴾ (٢)

الجلال : العظمة والرفعة ولا يقال الجلال إلا لله والجليل من صفات الله سبحانه، وقد يوصف به الأمر العظيم والرجل ذو القدر الخطير.

المعنى :

أراد الشاعر بعد ما اهتدى إلى طريق الهداية بعد الضلال أن يرسم صورة واضحة المعالم للتقوى والهداية ، ليسير في ركابها راغبي الآخرة ، وإيحيا من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة - وبخاصة بعد أن عرف الإنسان من تصرف الأحوال وتقلب الزمان أن الدنيا زئله فانية ، وأن الآجال والأرزاق لا شأن

١- سورة آل عمران : الآية ٧ .

٢- سورة التوبة : من الآية ٤٠ .

للإنسان في مجرياتها ، فهي مخطوطة في علم الله الأزلي للإنسان ، تجري بها الأسباب التي كفلها الله للإنسان وهيئها له .

وإذا كان الأمر كذلك فإن التقوى هي معراج الفلاح وسبيل الهدى ، ومنازة السالكين ودرج الإيمان والصدق ، وأن التقى هو الذي تصدق أقواله أفعاله ويرى رفعتة وعلو نسبه في قرينه من ربه بالأعمال الصالحة وبالتقوى .

﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىكُمْ ... ﴾ (١)

والتقى إذا ما أخلص لربه هداه الله للخيرات والأعمال الصالحات من أقوال وأفعال ويكون عبداً ربانياً يقول للشيء كن فيكون ، تنبع الحكمة من لسانه وتسير المكرمات على يديه .

وإذا كان هذا شأن التقوى وسمة المتقين ، فما عليهم إلا أن يتزودا بهذا السلاح وذاك السبيل ليزدادوا وقاراً وسكينة وهيبة .

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ... ﴾ (٢)

١- سورة الحجرات : من الآية ١٣ .

٢- سورة التوبة : من الآية ٤٠ .

جماليات النص وطرائق التعبير :

لقد بلغ من قوة هذه القصيدة في صدق انفعالها وتعبيرها أن أثارت ابن الأعرابي حتى قال في مجلس بعض الخلفاء : " إني ما رأيت قط شاعراً أطبع ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر " .

والقصيدة لها أهمية خاصة في حياته النفسية والفنية جميعاً ، لأنها تقح على الخط الفاصل الحرج في حياته حين وصل إلى قرار خاص بسلوكه وغمه ، ونلمح ذلك من خلال لهجته وتعبيره، الذي يعتمد فيه على ضمير المتكلم في مثل قوله : قطعت وحططت ويئست ، فوجدت ، وأرحت - ترحالي - رحالي - بالي وكلها تلمح بل تدل على ما في نفس الشاعر وما حدث فيها من تغيير وما طرأ عليها من تحول .

كما أن تعبيره بالأفعال الماضية في مجال عزيفه عن الدنيا بعد أن تعرف على حقيقتها وسماتها القبيحة فيه دلالة على أنه قد تمرس الحياة أيام الصبا والهورى وتعلق بالكثير من مغرياتهما ، وحمل على عاتقه الكثير من أعبائها نلمح ذلك من خلال قوله : قطعت ، حططت ، يئست ، وكأنه بهذا التعبير يلقي عن عاتقه ما كان يتحمله .

كما أنه حين تنتابه نشوة النصر على أهوائه وفرحته بالتخلص مما كان يشغله يستخدم الأفعال الماضية التي تؤكد انصرافه وعزيفه عن الدنيا ، فتأتي الأفعال وجدت - أرحت ، ولئن يئست لربّ برقة حلب - برقت ، لتؤكد هذا المعنى ولتعطي جمالا في أداء الشاعر وحسن التعبير عن تجربته .

كما تأتي كلمات الندم وعتور الحظ دليل على إسرافه وإفراطه في الاشتغال بملذات الحياة وانغماسه في أهوائه خلال ماضيه مثل : ما كان أشأم ، رجاؤك قاتلي ، بنات الوعد يعتجلن ببالي .

هذا بالإضافة إلى إجادته في تخير الصور الفنية المعبرة عما بنفسه والمجسدة لما يحسه في أعماقه تجاه الدنيا وحقيقتها .

فنرى في البيت الأول صورة رائعة من صور الاستعارة المكنية التي جسدت الآمال شركا وحبائل صيد كثير ما أوقعته الدنيا في فخاها قبل أن يتعرف على حقيقتها كما أن استخدامه لكلمة قطعت تفيد تمام الإجهاز على العلاقة بالدنيا .

وفي البيت الثالث كناية عن راحة فؤده وهدأة نفسه بعد أن اعتنق طريق الهدى والصلاح وتكشفت له سمات الدنيا القبيحة ويأسه من أباطيلها وذلك في قوله : فوجدت برد اليأس بين جوانحي .

وفي البيت الرابع دلالة على إنغماس الشاعر وانصهاره في الحياة اللاهية العابثة قبل عزفه عنها ، ويقينه بكثرة خداعها ويرق سراها للراغبين فيها وغير البائسين منها ، لكنه عرف حقيقتها وسبر أغوارها وأبان زيفها وعرورها ويتجلى ذلك في قوله.. لرب برقة خلب برقت لذي طمع ، وبرقة آل .

وفي البيت الخامس يوظف خياله توظيفاً رائعاً فيأتي بصورة بيانية رائعة أسهمت في تجسيد ما ارتكبه في ماضيه من حماقات وجهل وانشغال بالدنيا .

وفي قوله : "رجاؤك قاتلي" استعارة مكنية تصور شدة حرصه على تحقيق رجائه وآماله .

وفي قوله : "بنات وعدك" كناية عن الأماني الكاذبة والآمال الخادعة التي تزينها الدنيا لراغبيها .

وقبل هذه الصور وتلك الخيالات تتجسد لنا ملامح جدته وصدق نيته في نفرته من الدنيا ومما كان عليه في سالف عهده وذلك في قوله ما كان أشأم .

أما في الآيات من ٦: ١١ نرى أن الشاعر يلح في إظهار فكرته تلك التي تتمثل في معرفته طريق النجاة والهدى ، فقد استعمل من الألفاظ والتعبيرات ما يساعده على إبراز تلك الفكرة .

ففي مجال قراره الفاصل الذي يحاول توكيده يستخدم كلمة (الآن والتي كررت في أوائل الآيات الثلاثة الأولى والتي تفصل بين واقعة الحالي وماضيه ، ولم يكتف الشاعر بذلك بل حشد الكثير من الألفاظ ، يا دار كل تشئت وزوال ، وصار لي الزمان مؤدياً ، وأبصرت السبيل إلى الهدى وتفرغت هممي عن الانشغال ، فكل هذه الألفاظ تبرز أولاً قدرته على تخير الألفاظ الموحية والمعبرة عما في نفسه ، وثانياً فإنها جاءت موفية كما أرادته من معنى .

ثم إنه في فلسفته التي انتهى إليها ، وأصبحت حقيقة واقعة في نفسه ومنهجاً يسير عليه استخدم لبيان ذلك قوله : (رأيت ، ورأى ، وأبصرت) وفي هذه الألفاظ دلالة على وضوح الرؤية وسلامة القصد فيما اتجه إليه .

كما استخدم أدوات التوكيد ليدل على أنه لاشك ولا ريبه فيما ذهب إليه وأخبر به وذلك بعد مشاهدته ورؤيته ونلمح ذلك من خلال قوله في صدر ثلاثة أبيات " لقد " ويعقبها بقوله (رأيت) ، (وتصدى) .

أما من ناحية الصور والأخيلة ، فإننا نجد أن أبا العتاهية قد صور ورسم بقلمه ما جسده خياله من حسه ومشاعره تجاه واقعه الذي عاشه قبل أن يسلك طريق الهداية والفلاح .

ففي البيت التاسع نجد الاستعارة الرائعة التي جسدت الشيب وهو يقيم نعاته كما أنه يُفْضِي إليه دون أن يستطيع رده وفي هذا ما يؤكد دور المشيب في حياة الإنسان ، على أساس أنه من دلائل وعلامات الفناء ونذير من نذر الموت .

وفي البيت العاشر يأتي بعدة صور للموت في صور محسوسة لتكون أوقع في النفس وأقرب إلى الواقع الذي أضحى عليه بعد ما تقدمت به السن وأصبح قريباً من الآخرة ، ومن هذه الصور قوله: " رأيت الموت ، يبرق سيفه ، بيد المنية ، وهي صورة يتشخص فيها الموت وتترأى بها المنية ، كما يبدو الموت بريقاً ولعاناً ، وهذه استعارة مؤكدة بما لحقها من الاستعارات التي تآزرت جميعاً في إبراز وتصوير المعنوي في صورة محسوسة لتجسد ما في نفسه من انفعالات وعواطف صادقة .

وفي البيت الحادي عشر ما يشير إلى اللوعة والأسى لما صار إليه من عجز وضعف بحيث لا يقدر على إبقاء سلامته أو صد ما تفعله الحياة بصحته ، ويتمثل ذلك في قوله (ولقد رأيت عرا الحياة تخزمت) على سبيل الاستعارة المكنية .

وفي الآيات من ١٢: ١٧ ، نلاحظ أنها جاءت في صور تغلب عليها الحقيقة بل إنها بعيدة عن الخيال ، فهي عظات وعبر يسوقها الشاعر في أسلوب رقيق وعاطفة صادقة لتنساب عبر الأذان إلى القلوب .

وقد استطاع الشاعر أن يختار الألفاظ والعبارات التي تؤدي ذلك المعنى التي يعتمد على سرد الحقائق وتكرار النصح والإرشاد وتقديم خلاصة تجربته في الحياة ، والدعوى إلى الهدى .

وقد استعان الشاعر على بيان ذلك بما التمسه في القرآن الكريم وبما اقتبسه من السنة النبوية ، ومن أقوال الشعراء السابقين .

ففي البيت الرابع عشر نجد أنه أهتدي إليه من خلال قول الله عزوجل :

﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ...﴾ (١)

حيث عبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله : " وإذا تناسب الرجال فما أرى نسباً يقاس بصالح الأعمال .

كما التمس المعنى نفسه من قول الحطيئة :

وتقوى الله خير الزاد ذخراً

وعند الله لأتقى مزيد

وفي البيت الخامس عشر نجد انه استعمل لفظ التقى بمعنى المؤمن وفي هذا

دلالة على أن الإيمان والتقوى مترادفان - كما نراه يحدد مفهوم الإيمان مستعيناً بقول النبي ﷺ : " الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل " .

كما أنه يتمثل معنى قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١)

وهذه المعاني استطاع الشاعر أن يصيغها في قوله :

وإذا بحثت عن التقى وجدته

رجلاً يصدق قوله بفعال

وكأنه يحث على صدق الإيمان ومطابقة الأقوال للأفعال حتى يصدق

إيمانه وإلا كان مرئياً . وفي الشعر العربي مثل هذه النصائح التي تكشف زيف بعض الناس ممن يراءون وتحتهم على الإخلاص ومن ذلك قول أبي الأسود الدؤي :

يا أيها الرجل المعلم غيره

هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضني

كيما يصح به وأنت سقيم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله

عار عليك إذا فعلت عظيم

وفي البيت السابع عشر نجد أن الشاعر قد وفق في اختيار كلمة ترسخ

مضعف العين للدلالة على الكثير من عمل التقوى ، وتعميق الإيمان وزيادة التحلي

بخير كساء وأحسن ملابس وفي ذلك معنى قوله تعالى :

﴿...وَلِبَاسٌ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ...﴾ (٢)

١- سورة الصف : الآية ٣، ٢.

٢- سورة الأعراف : من الآية ٢٦.

وقوله تعالى :

﴿...وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ تَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾ (١)

وفي القرآن الكريم آيات تدور في هذا الفلك الذي يدعو إلى ترسيخ الإيمان في القلوب .
والآيات في جملتها تمثل قطعة روحية لما أشاعه فيها من روح القرآن
وهدي النبي ﷺ ، حيث اتجه بها إلى الإرشاد والنصح والتوجيه وفي هذا
المقام لا يعتمد الشاعر على الخيال بل يعتمد على الحقيقة المجرنة
التي لا يصلح غيرها في هذا المقام ، لذا نرى التعانق بين الألفاظ وبين ما
يريده الشاعر .

تعقيب على القصيدة

لقد عبر أبو العتاهية في هذه القصيدة عن رأيه في الحياة ، وأكثر من التعبير طويلاً في هذا المضمار وكان أكثر ما يستغرق همه في نظرته إلى الحياة أنها ليست سوى آمال ضائعة وسراب خادع وأماني كاذبة .

ولعنا نستطيع أن نصل إلى خلاصة رأيه في الحياة في كثير من جوانبها كما رآها وتصورها شراً وبلاءً وهموماً ، وعلى أساس ذلك عرض ما ينبغي أن يكون عليه سلوك من تعرف على حقيقة الدنيا ، كما عرض بعض الأسس المثالية التي تصح بها حياة المرء في الدنيا ، وتكون له ذخراً في آخرته .

وهو يبدو من خلال هذه القصيدة وكأنه أخذ على عاتقه ضرورة الأخذ بأيدي الضالين الذين جرفتهم الحياة بعيداً عن سبيل الهدى وسلم الفلاح ، ومحاولة إرشادهم إلى طريق الهدى والنور .

ونلاحظ كذلك أن الشاعر قد تهيأ له من الصفاء الروحي والخواطر الإيمانية ما جعله يصل إلى طريق الله ، بعد أن ضلّت به الأهواء وشغلته الحياة بغيرها وخداعها ، فكانت تلك العودة الصادقة الممزوجة بإيمان الخائف ويقين الراجي والحريص على لفت أنظار الطامعين في الحياة الراغبين فيها إلى خداعها وزيفها قبل أن تجرفهم تيارات الفساد وعواصف الأهواء .

والقصيدة بما أودعه الشاعر فيها من سلاسة المعاني وورقة الألفاظ وإحكام النسيج ، وبما رسمه فيها من الصور الفنية الرائعة من استعارات وكنائيات وتشبيهات ومحسنات لفظية عفوية ، أصبحت لوحة فنية متناسقة الأجزاء ، كما أنها أبانت وأفصحت في جلاء عن غايته وقصده .

كما أن القصيدة تعد صورة حية للحياة في العصر العباسي ، وما كان يدور فيها من الترف واللهو والتكالب على الدنيا ، والانشغال ببهرجتها وسرابتها الخادع ، فالقصيدة انعكاس لكل هذه المظاهر .

ومن خلال هذه القصيدة وغيرها من شعر الزهد عند الشاعر نرى فضل ريادته لهذا اللون من الشعر ، واستحق أن يكون رائد نزعة خلقية وهنت في عصره . فكانت نزعة اللهو والفسق شائعة مألوفة في أدب العصر وبين شعرائه وأدبائه ، أما نزعة التأمل في الحياة والاتعاظ بالموت لم تكن ذات شأن في أدب هؤلاء الأدياء . إلى أن جاء أبو العتاهية فتولاها بشعره السهل وعبر عنها تعبيراً واضحاً ، وأخذ يتعهد هذا الفن الشعري حتى أصبح فنأله أصوله وقواعده عند سائر الشعراء لينسجوا على منواله ، وأصبح أبو العتاهية علماً من أعلام أدب الزهد أو شعر الزهد .

ومع هذا فقد أبرز بعض النقاد بعض المآخذ الفنية إلا أنها لا تقلل من القيمة الفنية للقصيدة وذلك مثل ظاهرة التكرار لبعض الكلمات مثل تكرار كلمة " الآن " في أوائل الأبيات ٦ ، ٧ ، ٨ ، وتكرار كلمة (لقد) في أوائل الأبيات : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ وتكرار كلمة : (إذا) في الأبيات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

وهذا التكرار لا يعد عيباً كما ذكر النقاد إذ إن القصد منه محاولة إبراز الفكرة التي تدور في ذهن الشاعر ، فيحاول استغراق كل ما يسهم في إظهار تلك الفكرة ، وتكرار كل لفظ من هذه الألفاظ له دلالة التي أشرنا إليها في مواطنها .
وبهذا تعد القصيدة نموذجاً فنياً رائعاً في شعر الزهد .